انتفاضة الأقصى وانعكاسات الحصار

بقلم: د. هشام فرارجة *

نصف عام ينقضي على اندلاع انتفاضة الاقصى وهي لا تزال تسطر أروع أنواع البطولات والتضحيات امام أعتى اشكال البطش والتنكيل. هذه الانتفاضةالتي تجسد معركة الارادة ضد القوة تتصاعد حيناً بعد حين، وتتطور من اسلوب الى اسلوب، محطمة اساطير العظمة المزعومة وواضعة على المشرحة مختلف اصناف الاحباط والاجهاض والزيف والمماطلة. هذه الانتفاضة التي اضحت ظاهرة متكاملة بما فيها من تجارب نضالية متعاقبة رغم حالات الصعود والهبوط، استطاعت ان تحدث تغييرات جذرية في طبيعة الصراع الفلسطيني – الاسرائيلي وفي ماهيته وادوات ادارته من قبل كل أطرافه.

ان انتفاضة الاقصى قد صارت حقيقة ملازمة ملاصقة للتفاعل الفلسطيني الاسرائيلي، خاصة بعد ان توقع البعض ان لا تتعدى كونها هبّة سريعة او زوبعة في فنجان، بل علاوة على ذلك، فانها قد اجتازت نقطة اللاعودة في مسيرة دحر الاحتلال ونيل الاستقلال، سيّما ان ما سبقها من تداعيات ما زال يمكنها من الاستمرار ويمدّها بالوقود والزخم الذي تحتاج اليه. واجهزة الامن الاسرائيلية نفسها يبدو كأنها قد وصلت الى مرحلة التسليم بارتفاع وتيرة هذه الانتفاضة رغم كل ما تحيكه من مخططات وما تعدّه من شراك من أجل الايقاع بميدانييها. فمن أهم ما يميز هذه الانتفاضة، خاصة وهي تودع شهرها السادس على التوالي، هو انها قد تعدى فيها الفعل المقاوم محدودية القنوات والتنظيمات الفلسطينية التقليدية لكي يكون شعبياً منبثقاً من بين كل الاوساط التي لمست بشكل مباشر ما يجلبه عليها الاحتلال من اضرار ودمار.

فالحقد الذي زرعه الاحتلال الاسرائيلي في القلوب الفلسطينية اخذ ينبت ويؤتى أُكله على الصعد الفردية والجماعية على حدٍ سواء، لدرجة انه بدأ يشكل كوابيس جديدة للاسرائيليين لم يكونوا معتادين عليها من قبل حتى في سني أوج الصراع.

وتماماً كما ان الاحتلال الاسرائيلي قد استنفد كافة تركيباته الحزبية وشخصياته القيادية من اجل تقويض أركان انتفاضة الاقصى، فانه يبدو وقد استحالت امامه مختلف الوسائل والادوات القمعية والتركيعية التي يهدف من وراء استخدامها استنزاف الروح النضالية عند المنتفضين واطفاء شعلة المقاومة عندهم، فلا المعتقلات اثبتت نجاعتها الا في اعداد كوادر تستطيع تعبئة الجماهير وتفعيلها حتى اثناء وجودهم خلف القضبان من خلال ما يترتب على اضراباتها عن الطعام من هبّات عارمة ومصادمات رافضة للخنوع. ولا الاغتيالات المنتظمة المبرمجة للقياديين الميدانيين أدت الاّ الى دفع الانتفاضة نحو المزيد من التخطيط والتنظيم والدقة في اختيار الاهداف واصابتها، والقصف الجوي والبري والبحري المتكرر لمختلف التجمعات السكانية الفلسطينية ساهم في شحذ الطاقات وتعميق روح الصمود اكثر مما نجح في نشر الرعب والترويع، ويبدو كأن كل غرسة قام الاحتلال باقتلاعها كان قد أحلّ مكانها مسماراً في نعشه. فالتدمير المنهج لمقومات الحياة الفلسطينية بما فيها من مزارع وبساتين ومساكن وبيئة لا يمكن ان يتحول برداً وسلاماً على الاحتلال ومرافقه، وقيام الاسرائيليين بحبس مياه الشرب عن الفلسطينيين بل اغراقهم بالمياه العادمة بهدف ابادة مقومات الحياة عندهم، ولوبشكل بطيء، من الاستحالة ان يجلب سلاماً او أمناً او طمأنينة. ورغم ان ما يوقعه الاحتلال الاسرائيلي من دمار وارهاب على الفلسطينيين لا يمكن مجاراته او مساواته، الاّ ان انتفاضة الاقصى جعلت من غير الممكن ان يسلم الاحتلال من أثارها.

ولذلك، سعى الاحتلال الاسرائيلي جاهداً، ولكن في ذات الوقت يائساً، لاتباع ما هو مألوف وما هو غير مألوف من الوسائل لايقاع الضرر والاذى بالفلسطينيين العزل وبممتلكاتهم، ومع اتساع رقعة حالة اليأس التي وصل اليها الاحتلال في تحقيقه اهدافه، بات يتخبط خاصة بعد ان جرّب ما يعرفه وما لا يعرفه من طرق التنكيل وطمس الروح المعنوية.

وعندما فشلت الآلة العسكرية في ترجمة تطلعات الاحتلال الى نتائج عملية ملموسة بالشكل الذي يريد، عكف خبراء الأمن الاسرائيليون على اعتماد تضييق الخناق وتشديد الحصار على الفلسطينيين في مدنهم وقراهم ومخيماتهم بهدف خلق حالة من الاحباط العميق وتعطيل سبل العيش التي لم تكن الاّ عسيرة وتحدياً دائماً في ظلّ الاحتلال.

فالحصار الاسرائيلي على الفلسطينيين في مختلف تجمعاتهم في الضفة الغربية وقطاع غزة لم يعد تكتيكاً يستخدم من اجل تصعيب الحياة عليهم وعرقلتها. وانما خاصة في العهد الشاروني الجديد، اصبح جلياً ان الحصار المستديم بما فيه من تقطيع لأوصال الوطن الفلسطيني وعزل للقطاعات الشعبية قد اعتمد كاستراتيجية متكاملة ضمن سياسة الاحتلال الرامية الى اقتلاع الفلسطينيين من اراضيهم وتدميرها اذا لم تتم مغادرتها، ومن اكثر الامثلة سطوعاً على مدى فداحة برامج الاحتلال تجاه الشعب الفلسطيني هو قطع احد الشرايين المهمة في الحياة الفلسطينية بتدمير جزء من الطريق المؤدية من والى أهم احدى المؤسسات التعليمية في فلسطين وهي جامعة بيرزيت مؤخراً. فعدا تعطيل حياة سكان عشرات القرى المستخدمة لتلك الطريق، فان هدف الاحتلال بتلك العملية التدميرية كان استراتيجياً من الدرجة الاولى وهو تعطيل الحياة التعليمية لآلاف الفلسطينيين بالكامل. ورغم ان خطوة من ذلك النوع كانت قد كشفت ما تبقى من زيف مقنع من على وجه الاحتلال امام اعين العالم برمته، الاّ ان الوقفة الجماهيرية الجادة حالت دون تمادي سلطات الاحتلال، ولو الى حين، في تنفيذ مخططاتها التدميرية.

ورغم عزم الحكومة الشارونية على اعطاء الانطباع بانها اكثر قدرة من سابقاتها على ضمان الامن الاسرائيلي عن طريق تعزيز الحصار الاقتصادي والسياسي واللوجستي على الفلسطينيين، الاّ ان الضجة الاعلامية العالمية التي نتجت كانت قد ردّت المحتلين على اعقابهم، ولو مؤقتاً، وعقّدت حساباتهم، وكما هي الحال بالنسبة لكل خطوة تعسفية يقوم بها الاحتلال الاسرائيلي ضد الفلسطينيين، فان الحصار المشدد واعتماده استراتيجية اسرائيلية في المرحلة الراهنة لا شك في انه يحمل في طيّاته عناصر تخدم البرنامج الاسرائيلي مؤقتاً وذلك بعرقلة مخططات الفعل الفلسطيني الميداني، من ناحية، وعناصر اخرى تجعل من استراتيجية الحصار الاسرائيلية اهزوجة يرددها شارون ندامة على فشله وانهيار طموحاته. فالايام قد برهنت على ان الالم الفلسطيني والمعاناة المعاشة تتحولان مع الوقت الى فعل يطال من كان المسبب. واذا ما اعتقد العسكريون الاسرائيليون ان حفرهم الخنادق في الطرق التي يدمرونها، سوف يمكنهم من قطع خطوط الاتصال بين المنتفضين، تمشياً مع الاستراتيجيات العسكرية التقليدية التي تتبع عادة في الحروب فعليهم ان يترقبوا فشلهم الذريع النابع من عدم استيعابهم ديناميكيات الانتفاضة واساليب خوضها. فكما ان لاستراتيجية الحصار انعكاسات على الفلسطينيين والتي لا يمكن القفز عنها او الاستهانة بآثارها، فان لها انعكاسات على المحتلين الاسرائيليين لا تقل تأثيراً، ان لم تكن اكثر عمقاً ومساهمة في تشكيل النتائج.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة بيرزيت